# أبو العلاء المعرّي متفائلاً

Abu Ala'a Al Maari Ihe optimism

**صلاح الدّين حملاوي**

جامعة (الجزائر)، Salaheddine.hamlaoui@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/02/19 تاريخ القبول:2020/02/26 تاريخ النشر: 2020/07/29

**الملخّص:**

تسْعى هذه الورقة البحثيّة إلى بيان تمظهرات و تجلّيات ظاهرة التّفاؤل عند أبي العلاء المعرّي، و تحليلها من منظور أدبيّ، كما تُحاولُ التماس الحقيقة و تصويب الأحكام التعسّفية الظّالمة؛ القائلة بسوداويّة الشّاعر و تشاؤمه المطلق، وقد اتّكأت الدّراسة على خطابات المعرّي الشّعريّة لأنّها الوثيقة الصّادقة و المرآة التي نراه من خلالها، فهي تمثّل عرْضًا بَيِّنًا لبيئته و فِكره و منهجه في الحياة.

**الكلمات المفتاحيّة:** أبو العلاء المعرّي– بيئة العصر العبّاسي– التّفاؤل– التّشاؤم– الشّعر.

**Abstract** This research paper seeks to show manifistations and aspects of optimism phenomenon at Abu Ala'a Al-Maari. And analyze it from literary perspective. It also attempts to seek the truth and correct the arbitrary and unjust judgments, that say the blackness of the poet and his absolute pessimism ; the study relied on Al-Ma'ari'spoetic speeches because it is the sincere document and the mirror that we see him through ; as it represents a clear presentation of his environment, his thought and his in life.

**Key words:** Abu Ala'a Al Maari – The Abbasid environment – the optimism – the pessimism – poetry.

**المؤلف المرسل:** صلاح الدّين حملاوي ، **الإيميل:**

Salaheddine.hamlaoui@gmail.com

## أبو العلاء المعرّي متفائلاً

### مدخل:

التّفاؤل من الفأل، وهو قول أو فعل يُسْتَبْشر به، وتسهل الهمزة فيقال: الفال، وتفاءل بالشّيء: تيمّن به، وقال" ابن السكيت" : الفأل أن يكون الرّجل مريضًا فيسمع آخر يقول: ياسالم، أو يكون طالب ضالّة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقول: تفاءلت بكذا، ويتوجّه له في ظنّه كما سمع أنّه يبرأ من مرضه أو يجد ضالّته. ويقال: لا فأل عليك: لا ضير عليك. ويستعمل في الخير و السرّ. والفأل ضدّ الطّيرة، وتفاءل ضدّ تشاءم. (الأنصاري، 1998م، صفحة 13)

و أصل التّفاؤل في العربيّة التيمّن، وهو ضدّ الطّيرة، وهي ما يُتشاءم به، أي يتوقّه به السّوء. وقد كان العرب يسمّون مظانّ المهالك بأضدادها تفاؤلاً بالنّجاة منها، فمثلا يسمّون المهلكة مفازة، أي مكانًا للفوز، ويسمّون الكسير و جبير، تفاؤلاً بجبرها، والتيمّن المرادف للتّفاؤل مأخوذ من اليُمن أي البركة، وأصله من اليمين ضدّ اليسار. فلمعنى التّفاؤل و التّشاؤم صلة بعقائد شعبيّة تركت أثرها في الأدب، فاليمين و اليمن بركة و بشارة، والشّمال شرّ وشؤم، ومن ذلك قول الشّاعر لحبيبته:

و التّفاؤل عند الفلاسفة – بما أنّ شاعرنا فيلسوف الشّعراء و شاعر الفلاسفة– يعني أنّ العالم يغلب فيه الخير على الشرّ و السّعادة على الشّقاء، وعلى الرّغم من واقع الشّرّ، هو هو عمل حسنٌ؛ أفضل من العدم، وفيه السّعادة تغلب التّعاسة، وبالمعنى المطلق هو مذهب يرى أنّ كلّ ما هو كائن؛ هو حسن و أنّ الشرّ ليس سوى مظهر و نظرة نسبيّة، ملتوية. (لالاند، 2001، الصفحات 915–916)

والتّفاؤل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع و ظروفه في شتّى النّواحي و المجالات، حيث تؤثّر تأثيرًا مباشرًا على الفرد؛ في فكره و فلسفته و طريقة تعبيره و تعامله مع الآخرين، خاصّة إذا كان الفرد منفتحًا على الماحول مثل أبي العلاء، فحياته الخارجيّة و الدّاخليّة حاضنة لكلّ المتناقضات و الصّراعات، نتيجة فكره الجدليّ المتصارع مع الذّات وما تحمله من أهواء أوّلاً، ومع مصائب الدّهر و فساد البيئة و الواقع ثانيًا.

**أبيني أفي يمنى يديكِ جعَلْتني فأفرحَ أم صيّرْتني في شمالك**

(هلال، صفحة 66)

**تمظهرات التّفاؤل عند المعرّي:**

حاول أبو العلاء أن يكون – بهمّته العظيمة – كغيره من العظماء يطلب المجد؛ فإن كان فاته مجد السّيف، فلم يفته مجد العلم والأدب الذي حاول أن يبدع فيه تعويضاً عمّا لم يستطعه، فكان له ما كان من مجْدٍ أدبيّ حتّى صار من الخالدين في ذاكرة الأدب واللّغة ؛ فطاف في البلدان، في مراكز الحضارة في حلب وأنطاكيّة، حيث التقى رهبان الأدْيرة من النّصارى، وقرأ عليهم الفلسفة واللاّهوت وناقشهم في قضاياها ومعضلاتها، وارتحل إلى بغداد عاصمة الدّنيا والدّين وبلد الثّقافة والمعرفة بكل أنواعها، فاطّلع على كل ما كان فيها من علوم وفلسفات وفِرَق ومذاهب وأديان.يقول شاعرنا :

**لَعَمْرُكَ ما غادَرْتُ مَطْلَعَ هَضَبَةٍ مِنَ الفِكْرِ إلاّ وارْتَقَيْتُ هضابَها**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 93)

ويقول أيضًا:

**وقدْ سارَ ذِكْري في البلاد فمنْ لهُم بإخفاءِ شمسٍ ضَوْؤُها مُتكاملُ؟**

(المعرّي، سقط الزّند، دط، 1957م ، صفحة 193)

وهل ثمّة من امتلك، في ذلك العصر، أفقًا أوسع من أفق المعرّي:

**حاجي نظيم جمانٍ والحياة معي سِلْكٌ قصيرٌ فَيَأْبى جَمْعَها القِصرُ**

**أمّا المُرادُ فجمٌّ لا يُحيطُ بهِ شرحٌ ولكنَّ المرْءَ مُخْتَصَرُ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 310)

"وخليقٌ بذلك العقل العظيم، أن يموت جمّ الحاجات والمطامح، فلا يتّسع لها عمره المحدود ...فالمعرّي في بيتيه السابقين، مقبل على الحياة، يطلب عمرًا مديدًا، ينال فيه معرفة أشمل وأعمق، لكن الحسرة تشوب ذلك الإقبال، فعصره يضيق عليه، و يَمثُلُ مصيره المحتوم متحفّزا على قارعة الدّرب (القنطار، 2014، صفحة 246)."

وظلّت نفس أبي العلاء المعرّي طامحة إلى المعالي ظنًّا أنّ مواهبه تعوّضه عن عجزه فمضى في اندفاعة الشّباب، يبهر أهل بلدته بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريّته، وأسرف في أخذ نفسه بالتفتّح للدّنيا والإقبال على الحياة مع الولع بالعلم والجِدّ في طلبه. (الرحمن، 1972م، صفحة 23) فها هو يطلب أعلى المراتب، حين يقول:

**أريدُ عَليّاتِ المراتب ضِلـةً وخرطُ قتـاد اللّيل دون غُليانِ**

(القتاد، صفحة 372)

ولدينا على أيّ حال، من شعره شاهد وصادق على ما كان من بُعد همّته وطموحه، وعجيب مكابرته وعنيد إصراره على إقتحام معركة الوجود:

**ألا في سبيل المجْدِ ما أنا فاعل عفـاف وإقدام وحزم ونائـلُ**

(المعرّي، سقط الزّند، دط، 1957م ، صفحة 193)

و قد اتّفق أكثر المؤرّخين الذين كتبوا عن أبي العلاء، على أنّه كان في أثناء شبيبته في المعرّة يجالس الظرفاء ويتصرّف في فنون الهزل والجدّ، ويلعب النّرد والشطرنج: (حسين ط.، 1963م، صفحة 128)

**خلقْت منَ الدُّنيا وعِشْتُ كأَهْلِها أجدّ كما جدّوا وألْهو كما لهُوا**

(القتاد، صفحة 406)

ومن شعر شبابه الذي وصل إلينا مع حماسيّاته وقصائد جِدِّه، ما يشهد بأنّه كان يسرف كذلك على نفسه في أخذها بالتفتّح للدّنيا والإقبال على الحياة، ويفرض عليها أن تعاني فنون اللّهو والطرب، إلى جانب ما تعلّقت به من فنون الجدّ، وما شغلها واستهواها من طلب العلم والمجد، (الرّحمن، 1998م ، صفحة 66) يقول:

**وإنّـي وإن كنتُ الأخيرَ زمانِـهِ لآتٍ بما لم تسْتطِعْهُ الأوائلُ**

**وأغدو ولو أنّ الصّباحَ صوارِمٌ وأَسْري ولو أنَّ الظّلامَ جحافلُ**

(المعرّي، سقط الزّند، دط، 1957م ، صفحة 193)

إنّ المعرّي يعي فضيلة الأمل، ويثمّن تبديده لمشاعر الحزن والتّشاؤم والاكتئاب في النّفس الإنسانيّة، يقول:

**لـي أملٌ فُرْقانُـهُ مُحكم أقرؤه غضًّا كما أُنـزلا**

(القتاد، صفحة 211)

ويقول أيضًا في نفس المعنى:

**أجرى من الخيل آمالٌ أصرُّفها لها بحثـيّ تقريبٌ وإخبابُ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 76)

وقد صوّر هذه الفضيلة في مفارقة مكثّفة المعنى في هذين البيتين:

**والأملُ المبْسوطُ قرْنٌ إزاءَ اللّيْثِ لا يُتْرَكُ أنْ يَلْسنَـهْ**

**لوْ قيلَ لمْ يَبْقَ سوى ساعـةٍ أمّلتَ ما تعْجِزُ عنْهُ سَنَـهْ**

(القتاد، صفحة 366)

## أبو العلاء المعرّي متفائلاً

"يحمل البيت الأوّل صورة تشاؤميّة مقصودة، باعثة على الإكتئاب والاضطراب والخوف، إذ جسّم الأمل على هيأة جدي وديعٍ مغفل يربض قرب وحشٍ مفترسٍ، وقد وثب لاغتياله، هكذا هو الدّهر في اغتياله لآمال النّاس وسعادتهم، ثمّ عاد في البيت الثّاني ليبيّن دور التّفاؤل والأمل في حياة الإنسان، فلو قيل له: لن تعيش غير ساعة، لبنى من الآمال فيها ما يصعب تحقيقه في سنة، فإلى أي مدى تفاعل المعرّي في هذا البيت؟." (الأسدي، 2013م، الصفحات 202-203)

وكلام أبي العلاء في رسالة الغفران: يدلّ على أنه كان ينكر التّشاؤم، فقد قال: " من أُولع بالطيرة لم يرَ فيها من خيرة، وإنّما هي شرّ متعجّل وللأنفس أجل مؤجّل." (فر، 2011، صفحة 45)

ولا تشاءموا ولا تطيّروا وتمثّلوا بمثل هذا البيت وقد تمثّل به رسول الله كما ذكر الشّيخ في رسالة الغفران: (النشاشبي، الصفحات 82-83)

**تفاءل بما تَهْوى يَكُنْ فلقلّما يقال لشيء كان إلا تحقّقا**

يقول (الجندي):" لعلّ أوّل من نعته بالتّشاؤم، فريق من المستشرقين، ثمّ تبعهم جماعة من المشارقة المولعين بكلّ غريب، ولو كان باطلاً صريحًا، وظنّوا أنّهم أطرفوا الأدب العربي بما لم يستطعه الأوائل." (الجندي، 1964م، صفحة 1250)

وبإمكان الباحث أن يلمس جذور الأمل والتفاؤل في ديوانه الأوّل "سقط الزّند" ، إذ لم يكن ليله الحالك الظلام إلاّ صبحًا يتألّق فيه الأمل:

**رُبَّ ليلٍ كأَنَّهُ الصُّبْحُ في الحُسْـ نِ وإنْ كانَ أَسْوَدَ الطَّيْلَسانِ**

**قدَ رَكَضْنا فيهِ إلى اللَّهْوِ لَمّا وقفَ النَّجْمُ وِقْفَةَ الحَيْرانِ**

(المعرّي، سقط الزّند، دط، 1957م ، صفحة 94)

تسيطر على هاته الأبيات فكرة أن نأخذ المتعة من الحياة دون تفكيرٍ فيها ولا في آلامها، فالإنسان هو الذي ينغص عيشه بيده، فالعبرة بنفوسنا لا بقيم الأشياء في ذاتها. "فدع ما ضرّ وصعب، إلى ما نفع وهان، واترك المضلّة إلى المرشدة فإن طرقات الخير كثير": (النشاشبي، صفحة 84)

**الأمرُ أيْسر ممّا أنت مضمره فــاطرحْ أذاكَ وهــوّن كــلّ مــا صــعب**

**إذا تفكّرت فكرًا لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صعُبا**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، الصفحات 95-96)

ونمضي مع أبي العلاء في " اللّزوميّات" ، فنجد هذه الفلسفة التي أذاعها في ديوانه الأوّل مبثوثة في غير قصيدة، مضيفاً إليها استسلاماً للمقادير :

**هوّن عليك ولا تبال بحادث يشجيك، فالأيّام سائرة بنا**

(القتاد، صفحة 364)

وقوله:

**العلمُ كالقفْل إن ألفيْتهُ عسرًا فخلّهِ ثمّ عاوده لينفتحا**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 215)

لقد سلك المعرّي طريقًا نيّرة مطمئنّة يتخلّص بها من آلامه ومخاوفه، مادامت الآمال لا تواتي وأسباب الأماني لا تتّصل، إنّها طرق الإذعان والإستسلام لخالق حقّ، لا يُخيّب من يرتجيه:

**ولا يعقدْ لكُم أملٌ بخلقٍ وبيتوا للمُهيْمنِ آملينا**

(القتاد، صفحة 363)

فقد ظنّ أو تيقّن أنّه بذلك يستطيع أن يرتفع فوق الآلام والّتشاؤم واليأس، فالحقيقة الرّاسخة عنده هي الإله الحيّ، المميت المحيي، بقدرته تعالى يصبح أوّل الدّنيا آخرها، وآخرها أوّلها:

**سلِّم إلى اللهِ فكُلُّ الذي ساءَكَ أوْ سرَّكَ من عِنْدِه**

(حسين ت.، 1986، صفحة 1026)

وبذلك ترسو سفينة المعرّي على شاطئ الأمل الإلهي إنّه الحقّ واليقين الذي بلغته واطمأنّت في حماه وعزّته:

**ليفْعل الدَّهرُ ما يهمُّ به إنَّ ظنوني بخالقي حسنهْ**

(القتاد، صفحة 367)

ومن أشكال الّتواصل والّتفاؤل،" الإفتخار بالهويّة بتعدّد صورها، كالإفتخار بالهوية الدّينيّة الإسلاميّة، والهويّة القوميّة العربيّة، وهويّة الإنتماء لقبيلته وأرضه وبلدته تحديدًا، وتأصّل الّتواصل كذلك من حيث عدم إحداث القطيعة من خلال ترجيحه وجود اليوم الآخر" (الجبوري، صفحة 396)، يقول شاعرنا:

**لا خيْرَ للمَرْءِ إلاّ خَيْرُ آخِرَةٍ يُبْقي عليه فذاكَ العزُّ والشَّرفُ**

(القتاد، صفحة 105)

بإمكاننا القول أنّنا إذا تعمّقنا في أدب أبي العلاء، قد لا نرى التّشاؤم فيه، بل هو في سبيل بيان الواقع، واقع المجتمع والعالم كلّه. وهذا الرّأي يتشدّد عندما أمعنّا النّظر في سعة علمه، إنما هو جاء باقتراحات لتحسين الحياة البشريّة واقترانه بالسّعادة. لقد أجهد نفسه كثيرًا ليرى في النّاس من يتّصف بصفة يستحقّ أن يحمد عليها، فلم يجد، ولكنّه رأى عكس ذلك:

**لَعَمْرُكَ ما في عالمِ الأرْضِ زاهِدٌ يقينًا، ولا الرّهبانُ أهلُ الصَّوامعِ**

(القتاد، صفحة 287)

وقوله:

**تفرّقوا كـيْ يَقِلّ شرّكُم فإنّمـا النّـاسُ كلُّهـمْ وسـخُ**

**أجهْلْ بساداتهمْ وان زعمـوا أنَّهُمُ فـي علومهـمْ رسَخُـوا**

**قد نُسخَ الشَّرعُ في عصورهُمُ فلَيْتَهم مثلَ شرْعِهم نسخوا**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 224)

إنّ التّناقض والصّراع قوام حياة أبي العلاء، بل هما قوام حياة كل إنسان يجمع بين دقّة الحسّ ورقّة الشّعور وقوّة العقل والإرادة، لذا نجد الحزن طاغيًا على إبداع المعرّي، يسيطر على وجدانه وعقله ويرتبط بنمط شخصيّته وتركيبته السيكولوجيّة، فضلًا عن عوامل الحزن المكتسبة من البيئة الخارجيّة، لإحساس المعرّي الدّائم بالصّدام مع الواقع.

ويرى( الرّصافي) أنّ سخط المعرّي على الحياة، وعلى أحوال النّاس الدّينيّة والدّنيويّة لا يعدّ تشاؤما؛ لأن التّشاؤم في الحقيقة هو إساءة الظنّ في أمور لا يوافقه فيها العقل، ولا تسانده فيه( التّجربة والاختبار)، (الرصافي، 1946م، صفحة 51) " وقد نجده ساخطًا خاصّة في لزوميّاته؛ لأنّه لا يتوافق مع ما يجده من حوله من أمور لا ترضى فكره النّاقد وتجربته الصّادقة، ولهذا كان سخطه "سخطًا علميًّا فلسفيًّا لا ظنيًا ولا وهميًّا، فليس هو إذن من التّشاؤم في شيء." (الرصافي، 1946م، صفحة 52)

فالرّصافي كان معجباً بهذا المجتمع الذي رسم المعرّي معالمه في اللّزوميات، بحيث ظهر واضحًا في شعره من خلال تقارب الأفكار في المسائل الخاصة بالموت و الحياة، ونقد المجتمع ورجال الدّين و السيّاسة، والحثّ على طلب العلم، وغيرها من الأمور التي بها يخلق المجتمع المثاليّ.

والواقع أنّ أبا العلاء في صباه وقبل أن يتلقّى الصّدمة–الإهانة في مجلس الشريف المرتضى في بغداد– ، وقبل فقده لأبيه، ثمّ أمّه، كان غير متشائم، على الإطلاق، أو على الأصحّ غير انطوائي، كان يستمع إلى الغناء، ويؤمّ مجالس الطّرب، ويصف تأثّره بالغناء، ولو

## أبو العلاء المعرّي متفائلاً

لم يفهم كلمات الأغنية أحيانًا، كما حدث له حين استمع–في حلب–إلى مغنّية تركية، فقال واصفا تأثّره بحلاوة صوتها:"ورت كبدي ولم أفهم شجاها". (الدين، 1985م، صفحة 18)

فالمعرّي إنسان وليس بإنسان من يكره الدّنيا ولا يشتهي الحياة الطيّبة:

**أمورُ دُنْياكَ سطْرٌ خَطّهُ قدرٌ وَ حُبُّها في السّجايا أوّلُ السَّطْرِ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 387)

ويؤكّد هذا المعنى في قوله:

**فَتَرَوَّ من هذه الحيـاة لكـي تموت النّفس ريّـا**

(القتاد، صفحة 443)

فأيّ معنى عظيم تحمله هاته الأبيات ، أيّة دعوة إلى الحياة تنبض فيها، وهل لشاعر يُحكى عن تشاؤمه ويأسه وانتظاره الموت، أن يُنشد ما أنشد، إذا لم تغمر قلبه مسرّة عميقة بالحياة:

**ولا تظهرن الزّهد فيها فكلّنـا شهيدٌ بأنَّ القَلبَ يُضْمِرُ عشقها**

(القتاد، صفحة 195)

"وأمام هذه المسرّة، أو في زحمهـا الخلاّق، يبدو الزّهد شيئًا دخيـلاً على روح الإنسان، مصطنعًا، باهتًا، ما إن ترفّع ستره عن القلب قليلاً، حتّى يتفجّر عشق الحياة، فهي تستحقّ أن تعاش بكلّ غناها" (القنطار، 2014، صفحة 252) ، يقول:

**وقالَ الفارسونَ حليفُ زهدٍ وأخطأت الظّنونُ بما فرسنـه**

(القتاد، صفحة 362)

ففي "رسالة الغفران" هان عليه كل شيء، أمّا الذي لم يهن عليه هو مجاهدة ما رسخ في نفسه من حبّ الدّنيا، أو ما ظلّ يكابد من ظمأ إليها، وشغف بها مع إصراره حتى آخر

عمره، وإن ظنّ الناس كرهها منذ لحظة انسحابه إلى محبسه (الرحمن، 1972م، صفحة 32).يقول:

**أمرتني بسلو عن خوادعها فـــانظر هـــل أنـــت مـــع السّـــالين**
**ولا ترى الدّهر إلاّ من يهيم بها ساليها؟**
**طبعًا، ولكنّه باللّفظ قاليها**

(القتاد، صفحة 421)

وأبو العلاء قويّ عنده حبّ الحياة لدرجة أنه اعتبره أحد الوصايا الإلهية فقال:

**كأنّ المهيمن أوصى النفوس بعشق الحياة وإحبابها**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 180)

إنّ نفس المعرّي مُشربة بحبّ الحياة، مادام جسده حيًّا، إنّه العشق الخالص لحياة غنيّة مجيدة، توّاقة إلى الكمال الإنسانيّ، والعدالة الاجتماعيّة، ولن ينطفئ ذلك العشق ما يلحق الجسد من أدواء الدّنيا وقروحها، وما يلمّ بالنّفس من أتراحها وآلامها:

**دُنيايَ لا كُنْتِ من أمٍ مخادعة كم ميسمٍ بكِ في وَجْهي وأَقْرابي**
**أُشربْتُ حُبَّكِ لا ينْفيهِ عنْ جَسَدي سوى ثرًى لدماءِ الإنْسِ شَرّابِ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 124)

"إنّ وعي الموت الذي يسكن الإنسان، قد يدفعه إلى الإقبال على الحياة وملذّاتها، بنهم لا يرتوي مادام حيًّا، وبه يكون مقتله، مثلما يقتلُ الماء الضامئ الذي يعبّ منه بلا حساب" (القنطار، 2014، صفحة 244)، فالحياة هي الحبّ والهلاك معًا:

## أبو العلاء المعرّي متفائلاً

**دُنيـاي فيكِ نَفْسـي ومَهْلِكُهـا والماء يؤدّي بنفسي الوارد الصّادِ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 276)

ظلّت مأساة المعرّي تكمن في ذلك الحبّ الغريزيّ لحياة فاقت كلّ الدلالة على أنّها حياة فاسدة، فهل من الإنصاف أن يصدّق الإنسان دنياه حبًّا فتثيبه كذبًا وخداعًا:

**وصدقْتُ هذا العَيْشَ في حُبّي بـهُ واغترّنـي بخداعـهِ وكذابِـه**

(القتاد، صفحة 131)

كما يؤكّد ذلك في الفصول والغايات، بقوله :" زُوِيَتْ عنّي فأسفت، وأشفقْتُ لذلكَ وخفْت، وأحببتُ لها وشَنِفت، ولو أنْصفتُ لَعِفت، ما أستوبلُه فما نئفْت". (المعرّي، الفصول والغايات، ضبطه وفسّر غريبه: محمود حسن زناتي، دط، 1938م، صفحة 348)

وليس لشقاء الدّنيا أن يكون مدعاةً إلى اليأس، ومبرّرًا للزهد، فالمعرّي يدعو إلى ممارسة الحياة على شقائها، بل إنّ هذه الممارسة هي الحافز إلى التمسّك بالحياة، وهل يتولّد الحبّ إلاّ بالممارسة؟ يقول:

**شَقينـا بدُنْيانا على طولِ ودِّها فدُنياكَ مارِسْها حياتَكَ واشْقِها**

(القتاد، صفحة 145)

أجل لا يشبع الإنسان من الحياة، وإن طالت، ويطلب المزيد من دنياه، ويحتمل مشاق العيش دون أن يملّ، لكنّ قصر العمر يحول دون ما يطمح إليه ويتمنّاه:

**سألناها البقـاءَ علـى أذاها فقالت:عنكمُ حُظِرَ البقـاءُ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 43)

وعلى الرّغم من شبح الموت الجاثم، تظلّ الحياة عزيزة على النّفس :

**والنّفسُ آلفـةُ الحياةِ فَدَمْعُها يجري لذكْرِ فراقِها مَنْهَلُـهُ**

(القتاد، صفحة 190)

ويؤكّد هذا المعنى في قوله:

**ولو خيّرت لم أترك محلّي فأسكن في مضيق بعد رحب**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 128)

كما يفزعه المصير الذي لا مفرّ منه وهو الموت:

**تضاعف همّي أن أتتني منيّتي ولم تقض حاجي بالمطايا الرّواقص**

(القتاد، صفحة 65)

ولو خُيّر بين الحياة والموت لاختار الحياة ورفض الموت، ولكن هيهات:

**ولم أُرِدْ المنِيَّةَ باختياري ولكن أوْشكَ الفتْيان سَحْبي**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 128)

إنّها إرادة الحياة لتي تمدّ الإنسان بقوّة لا تنفذ، فيحيا بها كي يموت:

**والرّوح في حبّ دنياها معذّبة حتّى يُقالَ لها بيني عنِ الجَسَدِ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 281)

حبّ الحياة مصدر للعذاب، فأيّ عذاب أراده المعرّي، هل هو ما يكابده من مشقّات الحياة ذاتها؟ أم ذلك الهاجس الذي ينمّ عن شطره الثاني، هاجس الموت الرّابض في نهاية الدّرب؟

وتمضي حياة الإنسان في طريقها: أملٌ يولد مع الحياة، وينمو معها، وموتٌ يتربّص بذلك التّفاؤل والأمل في كلّ خطوة، لكنّ الموت ليس العائق الوحيد أمام الإنسان:

**وآمالُ النُّفوسِ معلّلات ولكنَّ الحوادثَ يعْترِضْنَهْ**

(القتاد، صفحة 312)

وهكذا يتردّد جدل الحياة والموت، الهوى والشّقاء، في شعر المعرّي ونثره، معبّرًا عن تلك الشخصيّة الطّموحة في محبسها، الجيّاشة بعظيم الأفكار، التوّاقة إلى حياة هنيّة نيّرة، وقد سُلّط عليها شبح الموت فأضناها:

**نحبُّ العَيْشَ بُغْضَا للمنايـا ونحنُ بما هَوَيْنا الأشْقياءُ**

(المعرّي، اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، دط، د ت، ج1، صفحة 41)

وإزاء هذا القلق الدراميّ، يتردّد بين الرّغبة في العيش، والنّزوع إلى الموت، هل يبقى للحياة من طعم، ومن معنى؟

## خاتمة:

لقد ظلَّ أبو العلاء حائرًا أمام الحياة لا يستطيع فهم الكون من حوله، ولكنّه لا يتفاءل في الحياة عن غير بصيرة وفهم، فلم يكن تفاؤله عابثًا أو لاهيًا كمن سبقه من الشّعراء، كأبي نواس وغيره، كما أنّه لم يكن كارهًا للحياة كما فهم بعضهم من خلال شعره، خاصّة اللّزوميات، بل على العكس، فقد وضع فيها الخطوط العامّة للمجتمع المثاليّ الذي كان يحلم به.

و إذا كان المعرّي قد غالى في نقده اللاّذع و تمادى في سوء ظنّه بالحياة و الأحياء فليس ذلك تشاؤمًا و لا قنوطًا، وإنّما كلام حقٍّ بطعم المرارة؛ فلا صمتَ حيثُ يجب الكلام

وختامًا نقول: من الغلوّ والمبالغة والتعسّف في مجال الدراسات الأدبية أن يستخلص الباحث من أدب أبي العلاء المعرّي عامّةً ومن شعره خاصّةً وثائق فلسفيّة و فكرية تؤسّس لقواعد كلّية لمنهجه في الحياة.

## - قائمة المراجع:


- أبو العلاء المعرّي.. الفصول والغايات، ضبطه وفسّر غريبه: محمود حسن زناتي، دار الآفاق الجديدة، لبنان، دط، (1938م).

- أبو العلاء المعرّي. اللّزوميات، تح: أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، د ت، ج1.
- أبو العلاء المعرّي. سقط الزّند، دار بيروت للطباعة والنشر، دط. (1957م ).
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب: خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات. بيروت ،مج 1،(2001).
- بدر محمّد الأنصاري. التّفاؤل و التّشاؤم المفهوم و القياس و المتعلّقات،. الكويت: لجنة التأليف و التعريب للنّشر ط1، (1998م).
- تح: مجموعة من الأساتذة، إشراف: طه حسين، شروح سقط الزّند، الهيأة المصريّة العامّة للكتاب، ط3،(1986)
- خرط القتاد. اللّزوميات، ج2: من أمثالهم في الأمر يكون من دونه مانع.
- خليل شرف الدين. أبو العلاء المعرّي مبصر بين عميان، دار مكتبة الهلال لبنان، دط،.(1985م).
- سامي شهاب أحمد الجبوري. جدل الخطاب النّقدي الحديث والمعاصر حول شعر أبي العلاء المعرّي.
- طه حسين. تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف،القاهرة، ط6 ،(1963م).
- عائشة عبد الرحمن، جديد في رسالة الغفران، دار الكتاب العربي. بيروت ط1،(1972م).
- عائشة عبد الرّحمن. مع أبي العلاء في رحلة حياته ،دار المعارف.، القاهرة ، دط. (1998م ).
- علي عبد الإمام الأسديالثنائيات الضدية في شعر أبي العلاء المعري،دار تموز للنشر. دمشق: ط1. (2013م).
- كمال القنطار. فكر المعري. بيروت، لبنان: دار الفارابي. (2014).
- محمد إسعاف النشاشبي. التفاؤل والأثرية في كلام الشيخ، ضمن المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، دار صادر. بيروت ، دط، دت.

- محمّد سليم الجندي. الجامع في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره، دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العربي. ج1، د ط، (1964م).
- محمّد غنيمي هلال. قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دط، دت. القاهرة: دار نهضة مصر.
- معروف الرصافي. على باب سجن أبي العلاء، دط. القاهرة: مطبعة الرّشيد. (1946م).
- نرجس توحيدي فر، أبو العلاء دراسة في معتقداته الدينية،. بيروت: دار صادر ط1. (2011).